# لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام

## 1336 ـ 1341م

د . حسن أحمد عبد الجليل البطاوي

مدرس تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب – جامعة أسيوط

obeikan.com

obeikan.com

# لودولف السوكيمي ورحلته إلى مصر وبلاد الشام
# 1336 ـ 1341م

إن رحلات الحجاج الأوربيين إلى بلاد الشرق الإسلامي في العصور الوسطى تقدم مادة تاريخية هامة ؛ وذلك لتنوع وطرافة موضوعاتها ، ولأن معظم الرحالة سجلوا ما لفت أنظارهم ، وما لا يفطن إليه المقيمون في ذات البلدان . وتختلف قيمة الرحلة حسب الفترة الزمنية التي وقعت فيها ، فما جرى تدوينه خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في ظل الوجود الصليبي في بلاد الشام ، تختلف قيمته عما دُوِّنَ بعد انهيار هذا الكيان . وتوافر لدى هؤلاء الرحالة الفرصة للتعرف على حياة المسلمين أكثر من ذي قبل، والتعرف على معتقداتهم ومقدساتهم[1] .

ورحلة لودولف السوكيمي من أهم الرحلات التي دونت في القرن الرابع عشر الميلادي ، وبعد سقوط الكيان الصليبي في بلاد الشام[2] . فقد زار بلادًا عديدة ، أهمها مصر وبلاد الشام وبغداد والقسطنطينية وقبرص ورودس وصقلية وغيرها ، وكتب تقريرًا عن هذه الرحلة . وإن توقيت الرحلة له دلالات هامة ، سوف تقوم هذه الدراسة بإبرازها ، حيث ألقي الضوء على الرحالة ورحلته ، ثم أتحدث عن أهمية التقرير الذي دونه عن رحلته ، ومنهجه في التدوين ، وأشير إلى الأخطاء التي وقع فيها في هذا التقرير .

---

(1) Henry L. Savage, Pilgrimages and Pilgrim shrines in Palestine and Syria after 1095, in Setton, A History of the Crusades, Wisconsin, 1977, vol. 4, p. 64.

(2) Ludolph von Suchem's Description of the Holy Land, and of the way thither, translated by Aubrey Stewart, M. A., in Palestine Pilgrems Text Society, vol. XII, London, 1895, pp. 1-142.

## لودولف ورحلته :

بداية ، فإن حظنا من المعلومات عن لودولف قليلة ، كغيره من الرحالة الأوربيين في فترة العصور الوسطى . والمعلومات التي جُمعت عنه جاءت في ثنايا رحلته التي سجلها بقلمه . ولودولف هذا ألماني ، وكان قسيسًا لكنيسة سوكيم Suchem or Sudheim ، التابعة لأبرشية بادربورن Paderborn . وقد توثقت علاقته ببدلوين ستينفورت Baldwin of Steinfurt أسقف هذه الأبرشية في الفترة من عام 1340 إلى 1361م . وذكر ستيوارت مترجم الرحلة أنه ربما كان بلدوين هذا قد ساعد لودولف في كتابة رحلته ، وأنه أيضًا كان مصاحبًا له[3] . وهذان الاحتمالان ضعيفان ؛ لأن لودولف نفسه ذكر في مقدمة رحلته أنه لم ينس بلدوين ، وهذا يعني أنه لم يصاحبه في الرحلة ، كما ذكر في أكثر من موضع أنه بعد عودته إلى وطنه احتفظ بفكرة الكتابة في ذهنه ، وأنه سيشرع في كتابة تقريره[4] . والأقرب إلى الصواب أن لودولف قام برحلته بناء على نصيحة أو تكليف من سيده بلدوين[5] .

وقد بدأ لودولف رحلته إلى الشرق عام 1336م ، وكان برفقته على نفس المركب التي أقلته عدد من الفرسان الفرنسيين . والتقى أيضًا برحالة ألماني آخر ، هو فلهلم بولدنسيل (بولنسيل) Wilhelm von Boldinsel[6] . واستمرت إقامة لودولف في الشرق خمس سنوات ، تنقل خلالها بين أقاليم ومدن وقرى وأماكن مختلفة عديدة . وإذا صدق لودولف فيما ذكره في رحلته ، فإنه التقى شخصيات بارزة عديدة ؛ ملوكًا وأمراء ونبلاء وأثرياء ، مما يدل على أنه لم يكن شخصًا عاديًا ، أو حاجًا ككل الحجاج الذين يفدون إلى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، بل كان شخصًا مرموقًا[7].

---

(3) Ludolph, preface's Stewart, p., III.

(4) Ludolph, op. cit., pp., 1, 2, 136.

(5) Ludolph, op. cit., p.,136.

(6) Ludolph, op. cit., pp., 2, 41, 93.

وفلهلم هذا راهب دومنيكاني ، أرسل في بعثة دبلوماسية إلى الأراضي المقدسة ، ورافقه فيها مجموعة من الحرس ، وكتب تقريرًا عن رحلته التي تزامنت في بعض سنواتها مع رحلة لودولف .

Ludolph, op. cit., p., IV.

(7) Ludolph, op. cit., pp., 1, 2, 43, 61, 71.

وفي عام 1341م استقل لودولف سفينته عائدًا إلى وطنه ، ومثلما كانت رحلته إلى الشرق مليئة بالمخاطر ، كانت رحلة عودته كذلك . فقد تعرضت سفينته للتدمير أكثر من مرة ، من جراء الرياح الشديدة والأمواج العاتية في البحر المتوسط[8] .

وعندما وصل إلى وطنه ، رأى أنه من الضروري أن يكتب تقريرًا عن رحلته ؛ احترامًا وتقديرًا لسيده بلدوين الذي ربما يكون قد كلفه بهذه الرحلة ، ولكنه انشغل عن الكتابة فترة من الزمن ، ومن الراجح أنه كتب رحلته بعد عودته بعدة سنوات ؛ لأنه سجل حوادث جرت في ألمانيا بين عامي 1348 - 1349م[9] .

**أهمية الرحلة :**

والتقرير الذي كتبه لودولف عن رحلته من أهم ما كتبه الرحالة الأوربيون عن بلدان حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى . وتتمثل أهمية هذا التقرير في عدة جوانب ؛ أولها الرحالة نفسه ، ثم توقيت الرحلة ومدتها واتساع نطاقها ، وثالثًا ما تضمنته الرحلة من معلومات نادرة وقيمة .

فأما عن الرحالة وما امتلكه من صفات ، فإننا نجد أنفسنا أمام رجل امتلك من الصفات ما جعله يبز أقرانه ، فهو رجل دين ، والحقيقة الجلية التي قد تبدو غريبة على رجل الدين في الغرب الأوربي آنذاك ، هي أن لودولف كان واسع الثقافة . وقد تركزت ثقافته على الجانب الديني أكثر من سواه ، فكان يعلق ويإسهاب على الأماكن المقدسة التي زارها ، ويستشهد بالكتاب المقدس .

ولم تكن ثقافته قاصرة على الجانب الديني فحسب ، بل كان ملمًّا ببعض اللغات الأجنبية ، والدليل على ذلك ما ذكره من أنه قضى خمس سنوات في رحلته ، وتحدث مع رجال بلغات بشرية مختلفة . وكان على معرفة بنص مكتوب على الأهرامات في مصر . ثم إنه كان قارئًا وباحثًا مدققًا ، فقد ذكر أنه طالع كتب تاريخ متعددة ؛ منها كتب تتحدث عن الغزو الصليبي لبلاد الشام ، وعن اجتياح المغول للعالم الإسلامي، وغير ذلك من كتب التاريخ[10] .

---

(8) Ludolph, op. cit., pp., 13, 22.
(9) Ludolph, op. cit., pp., 2, 13, 23, 24, 130, 136.
(10) Ludolph, op. cit., pp., 24, 26, 48, 65, 71, 72, 74-76, 80, 81, 96, 98, 104, 110.

وكان لودولف باحثًا نشيطًا ، وساعده نشاطه ودأبه على مشاهدة مواقع كثيرة ، والتنقل بين بلدان متنوعة ، والتعرف على شخصيات عديدة ، ذات مستويات سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة . ولا شك أن نشاطه وحيويته ودأبه قد ساعده أيضًا على تعدد وتنوع مصادر معلوماته ، مما جعل لكتاباته قيمة بالغة من حيث درجة المصداقية ، وتنوع الموضوعات .

وأما عن الشخصيات التي التقاها أثناء رحلته ، فذكر أنه أمضى فترة إقامته في الشرق، يتحاور ليل نهار مع كل رجل يتحدث أي لغة بشرية . فالتقى ملوكًا وأمراء ورؤساء ونبلاء وسادة . وعلى خلاف ما ذكر ، فإنه لم يلتق أحدًا من الملوك ؛ لأنه لم يذكر ذلك صراحة ، ولو أنه التقى ملكًا لكان من البديهي أن يذكر لقاءه به . والواقع أنه التقى عددًا من أمراء الصليبيين الذين تناثروا في جزر البحر المتوسط مثل قبرص ورودس ، بعد اكتساح المماليك لمستعمراتهم على الساحل الشامي ، على يد الأشرف خليل بن قلاوون عام 1291م . كما التقى صليبيين من مستويات أقل من ذلك ، فكان منهم الفرسان ، وبعض الذين فضلوا البقاء في الشرق تحت حكم المسلمين وبعض الواقعين في الأسر[11] . هذا فضلاً عمن التقاهم من الشرق . وقد مثل كل فرد من هؤلاء رافدًا لمعلوماته ، فكانت رحلته مصدرًا خصبًا ومتنوعًا لجملة كبيرة من الموضوعات الهامة .

ومن البديهي أن لودولف كان يمثل وجهة نظر الغرب الأوربي عمومًا ، وألمانيا على وجه الخصوص ، فقد ظهرت ألمانيته واضحة جليلة في ثنايا التقرير ، فكثيرًا ما كان يجد المناسبة للربط بين ما يراه في الشرق وما يشابهه في ألمانيا . فذكر نهر الراين عندما رأى نهر النيل ، وشبه نبع ماء في طرابلس بمثله في بادربورن ، وكنيسة بمثلها، وهكذا . ونوّه إلى جماعة التيوتون الألمانية ، وبعض نبلاء وأسرى ألمان في أكثر من موضع[12] .

---

(11) Ludolph, op. cit., pp., 1,30, 43, 49, 54, 56, 58, 61, 64, 72, 83, 92,116, 123, 126, 128.

(12) Ludolph, op. cit., pp., 27, 29, 40, 44, 47, 57, 70, 76, 92, 103, 125.

والتيوتون إحدى جماعات الفرسان الرهبان الذين ينتمون إلى ألمانيا . تأسست جماعتهم في عكا عام 1190م/ 586هـ . حسن عبد الوهاب ، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، د. ت ، ص83 وما بعدها ؛

Sterns,I., the Teutonic Knights in the Crusader States, in Setton, A History of the Crusades, Wisconsin, 1985, vol., 5, p. 320.

وكانت ميول لودولف الكنسية واضحة في تقريره ، فقد اعتنى بالآثار والأخبار المسيحية ، ووضع هذه الأماكن في ظل الحكم الإسلامي ، وخاصة بعد زوال السيطرة الصليبية . وظهر تعصبه للجانب المسيحي ضد الإسلامي ، ولم يكن متعصبًا على الدوام ، بل كان منصفًا أحيانًا ، كما ظهرت ميوله الكاثوليكية عند إشارته إلى بعض الطوائف المسيحية الشرقية ، فلم ينس أن يصفهم بالمنشقين ، وخاصة الإغريق ، وقال إن هرطقتهم كانت سبب ضياع الأراضي المسيحية في آسيا الصغرى[13] .

وكان طبيعيًا أن تظهر ميوله الغربية واضحة في كتاباته ، وذلك عندما تحسر على الأيام الخوالي ؛ التي شهدت صولات وجولات بني جلدته من الغرب الأوروبي ، الذين انتزعوا أراضي شرقية ، وأقاموا عليها مستعمراتهم الصليبية . وتحدث بمرارة عن أسباب سقوط عكا ، وكتب يتحرق شوقًا إلى عودة الصليبيين إلى الأراضي المقدسة ، وأن التخلص من الذنوب هو السبيل إلى ذلك ، ونقل اشتياق بعض الأوربيين إلى هذه العودة، كما أن بعض المسيحيين الشرقيين يتمنون عودتهم . وساقته أمانيه إلى الحديث عن الأمل المعقود في عودة الأراضي المقدسة[14] .

**ثانيًا : توقيت الرحلة ومدتها واتساع نطاقها :**

لقد كان توقيت الرحلة بالغ الأهمية ، إذ جاءت في مرحلة حاسمة من تاريخ العصور الوسطى . فقد بدأها بعد خمسة وأربعين عامًا تقريبًا من سقوط عكا ، ومعنى ذلك أن ما كتبه يعد تقريرًا هامًّا من وجهة نظر أوربية عن الأوضاع في حوض البحر المتوسط ، وفي بلاد الشام ومصر ، بعد المعركة الأخيرة في الصراع الصليبي الإسلامي . وهذا التوقيت أتاح له التقاء أناس كانوا في ساحات القتال . فكانوا مصدرًا ثريًّا للمعلومات عن الأوضاع الأخيرة في المستعمرات الصليبية ، وعن أحداث القتال والمقاومة المستميتة للصليبيين .

---

(13) Ludolph, op. cit., pp., 6, 7, 71, 98, 114, 120, 124, 125, 129, 130, 134.

(14) Ludolph, op. cit., pp., 3, 48, 53, 54, 83, 84, 123, 135.

والحقيقة أن لودولف لم يكن وحده الذي زار بلاد الشام بعد سقوط عكا ، فقد زارها الرحالة البندقي مارينو سانوتو Marino Sanuto[15] ، قبل عام 1321م ، وكتب تقريرًا مستفيضًا وقدمه للبابا يوحنا الثاني والعشرين 1334 -1316) JohnXXII م) . وكان عبارة عن خطة لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، وزارها بولدنسيل السابق ذكره . وجاءت رحلة لودولف إلى بلاد الشام تحديدًا بعد زوال الحكم الصليبي عنها ، وخضوعها لحكم المسلمين ، فكان عليه أن يتعامل مع الواقع الجديد ، من سيطرة وحراسة وإشراف المسلمين على هذه الأماكن ، والتحرك بين المواقع بالحصول على التصريح اللازم لذلك ، ومرافقة الأدلاء المسلمين في بعض المواقع . ولذلك كانت رحلته مختلفة عن الرحلات التي جاءت خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر في ظل وجود السيطرة الصليبية على معظم أماكن زياراتهم .

وأما عن مدة الرحلة ، فإن لودولف أقام في الشرق خمس سنوات ، وقد أتاحت له هذه المدة فرصة كافية للتنقل بين مدن وأقاليم بلدان الشرق الإسلامي ، وما جاورها . واستفاد من طول هذه المدة في التعرف على عادات وتقاليد سكان هذه البلاد ، والوصول إلى مصادر ثقة للمعلومات التي أوردها .

وقد أخذت رحلته نطاقًا جغرافيًا واسعًا ، أتاح له فرصة مشاهدة بلدان عديدة ، والاطلاع على أخبارها ، فتحدث عن البلاد التي تطل على حوض البحر المتوسط ، بداية من الممالك الإسلامية والمسيحية في الأندلس ، ثم بلاد المغرب وشمالي إفريقيا ، ثم جزر هذا البحر وبلدانه الأوربية ، حتى القسطنطينية وآسيا الصغرى ، ثم مصر وبلاد الشام ثم بغداد . ولا شك أن هذا النطاق الجغرافي الواسع للرحلة أعطى تقريره قيمة بالغة ، حيث تعددت موضوعاته وتنوعت تبعًا للمواقع التي زارها .

---

(15) محمد مؤنس عوض ، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى ، ط1 ، دار عين بالقاهرة ، 2004م، ص 103 ، 104 ؛ ورحلة سانوتو منشورة في :

Sanuto, M., secrets for the crusaders to help them to recover the Holy Land, trans. Stewart, A., in P.P.T.S., London, 1896, vol., XII, PP. 1-73.

وترجمه إلى العربية سليم رزق الله بعنوان «كتاب الأسرار للمؤمنين بالصليب في استرجاع الأراضي المقدسة والحفاظ عليها» ، ط1 ، دار الريحاني ، 1991م .

**ثالثًا : مضمون التقرير :**

لقد ذكر لودولف أنه كتب تقريرًا عن البلاد التي زارها ، ثم عاد فذكر أنه سيكتب تاريخًا مختصرًا[16] . وعلى كل حال ، فإن ما كتبه بالغ الأهمية ، وذلك لأنه كشف النقاب عن قضايا شائكة ، وزودنا بمعلومات نادرة في موضوعات شتى ؛ سياسية وحربية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وأثرية ، وجغرافية ، علاوة على إشارات متناثرة عن عجائب ونوادر أخرى .

ففي البداية تحدث عن الطرق المؤدية إلى الأراضي المقدسة ، وقال إن على المسافر أن يذهب برًّا عن طريق المجر وبلغاريا ، وهو طريق مرهق وممل ، ولكنه أكثر أمانًا . ثم يصل إلى القسطنطينية ومنها إلى الأراضي المقدسة ؛ إما بحرًا ، وسوف يمر على قبرص ، أو برًّا . وأشار إلى طريق بري آخر عبر الأندلس ، ثم مضيق جبل طارق ، ثم بلاد المغرب . وأضاف قائلاً إنه طريق مليء بالعقبات ، والمسلمون يستخدمونه في حجهم . ثم فصل حديثه عن طريق البحر المتوسط ، فنصح المسافر بأخذ كمية كبيرة من الطعام ، تكفيه خمسين يومًا في رحلته من الغرب إلى الشرق . وأما في عودته فإن مدة الرحلة تصل إلى مائة يوم . وذكر مواعيد قيام رحلات السفن سواء من الشرق أو الغرب ، وتحدث عن مخاطر هذا الطريق ، الممثَّلة في الرياح والعواصف ، والمياه الضحلة ، والأسماك الضخمة ، والشعب المرجانية . وتحدث عن أنواع السفن قائلاً إن هناك نوعًا من السفن يقطع البحر دون توقف ، ومراكب أخرى ترسو ليلاً وتسير نهارًا ، من ميناء إلى آخر ، ثم وصف هذه المراكب وطريقة قيادتها[17] .

وأما عن الأوضاع السياسية والحربية ، فقد اهتم بأخبار الحركة الصليبية ، فأورد إشارات متناثرة عن حوادثها ، فأشار إلى جهود جودفري البويوني Godfrey of

(16) Ludolph, op. cit., p., 2.

(17) Ludolph, op. cit., pp., 4, 7, 8, 11, 12-20.

Bouillon وأخيه بلدوين Baldwin في انتزاع الأراضي المقدسة . وذكر بعض الأمراء الآخرين ، الذين نجحوا في انتزاع مدن أخرى من أيدي المسلمين[18] .

وعند حديثه عن دمياط ، ذكر المحاولة الفاشلة للويس التاسع ملك فرنسا لغزو مصر عن طريق هذه المدينة ، وقال إن المصريين أسروا لويس ، واستردوا المدينة فداء لأسره[19] .

ثم انتقل إلى الحديث المسهب عن المشهد الأخير للصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الشام ، الذي جرت أحداثه في عكا . فعند حديثه عن هذه المدينة تحركت عواطفه على ماضٍ أسيف ، وأجهش بالبكاء على حالها ، وندب حظ هذه المدينة العريقة التي كانت في يوم من الأيام حاضرة الصليبيين في الشرق . فكان ملك بيت المقدس يقيم بها، إلى جانب سادة ونبلاء الصليبيين في المملكة ، ولكل منهم قصره أو قلعته ، فضلاً عن جماعات الفرسان الرهبان ؛ الإسبتارية Hospitallers والداوية Templars والتيوتون Teutonic وجماعتا توماس كانتربري St. Thomas of Canterbury وإلغازر St. Lazarus ، وجاليات التجار الإيطاليين من أبناء مدن بيزا وجنوا واللمبارديين[20] .

---

(18) Ludolph, op. cit., pp., 47, 48, 50, 103-104.
وجودفري دوق اللورين شارك في الحملة الصليبية الأولى . وانتخب حاكمًا على بيت المقدس في 22 يوليو 1099م . وأما بلدوين فهو الذي نجح في تأسيس إمارة الرها ، ثم انتقل ملكًا على بيت المقدس في ديسمبر عام 1100م ، خلفًا لأخيه جودفري ، وظل ملكًا حتى توفي في مارس 1118م . المؤرخ المجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ت حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د. ت، ص 120 .
Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, 1095-1127, trans. Rita Ryan, Tennessee, 1969, pp. 72, 124, 147, 221.

(19) Ludolph, op. cit., p., 81.

(20) Ludolph, op. cit. pp., 50-54.
والإسبتارية جماعة رهبانية تأسست في بيت المقدس قبل الغزو الصليبي ، وتحولت إلى النشاط العسكري بعد ذلك . وبعد سقوط المستعمرات الصليبية في بلاد الشام انتقل الإسبتارية إلى رودس .
Luttrell, A., the Hospitallers at Rhods, 1306-1421, in Setton, vol., 3, pp. 278, 280.
وأما الداوية ، فقد تأسست في بيت المقدس 1118م ، وكان لها نشاط بارز في قتال المسلمين ، وانتقل نشاطهم إلى جزر البحر المتوسط وأوربا بعد ضياع ممتلكاتهم في بلاد الشام . وفي عام 1307م قبض فيليب الرابع ملك فرنسا عليهم ، وانتهى أمرهم . وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، 4 أجزاء ، =

وفي إشارة بالغة الأهمية ، تحدث عن الأسباب التي أدت إلى سقوط عكا في أيدي القوات المملوكية . وتناول هذه القضية برؤية عميقة ، تدل على إدراكه للمادة التي جمعها من شهود عيان ، مع إلمامه بمجريات الحوادث التي كانت تجري في أوروبا آنذاك . واعتبر أن أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط هذا المعقل الحصين ، هو الصراع الذي اشتعل في أوربا بين الجولفيين Guelfs والجبلينيين Ghibellines[21] ، وانتقال هذا الصراع إلى الشرق اللاتيني . ثم أضاف في أسى وحسرة ، أن اشتعال الصراع بين الفرق الصليبية في عكا ، أدى إلى لجوء بعضهم إلى المسلمين ، فعقدوا معهم المعاهدات ، حتى يتسنى لهم الحرب ضد بعضهم البعض داخل عكا[22] .

وأضاف أن المساعدات الحربية التي أرسلتها البابوية إلى الصليبيين في الشرق ، لم يتجاوز عددهم اثني عشر ألفًا . وهؤلاء الرجال عندما وصلوا إلى عكا لم يفعلوا شيئًا بل انشغلوا في لهوهم وملذاتهم ، وانطلقوا إلى الحانات والأماكن سيئة السمعة، وسلبوا ونهبوا الحجاج في الشوارع العامة ، وارتكبوا آثامًا كثيرة ، ونقضوا المعاهدات[23] .

---

= القاهرة، 1991 – 1995م ، ج2 ، ص 345 ؛ رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ت السيد الباز العريني ، ط3 ، بيروت ، 1993م ، ج3 ، ص 732 .

وجماعة القديس توماس من كانتربري ، هيئة دينية وحربية أيضًا . أسسها راهب إنجليزي في عكا أواخر القرن الثاني عشر . وبعد سقوط عكا نقلوا نشاطهم إلى قبرص ، وظلت الجماعة تمارس نشاطها حتى نهاية القرن الرابع عشر . محمود محمد الحويري ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، القاهرة ، 1979م ، ص72 – 73 .

وأما جماعة القديس لازار ، فقد تأسست في بيت المقدس لرعاية المرضى ، ومع اشتعال الصراع الصليبي الإسلامي تحولت إلى جماعة عسكرية مثل الجماعات السابقة . الحويري ، المرجع السابق ، ص 73 .

(21) بغض النظر عن نشأة الاصطلاحين ، فإن اسم الجولفيين كان علمًا في العصور الوسطى على دوقات سكسونيا في ألمانيا ، ثم صار مرادفًا لأنصار البابوية في صراعها مع الإمبراطورية . وأما الجبلينيين فكان علمًا على دوقات أسرة هو هنشتاوفن حكام سوابيا ، ثم صار مرادفًا لأنصار الإمبراطورية . وبعد انتهاء الصراع بين البابوية والإمبراطورية ، بقي الاسمان في إيطاليا في القرن الرابع عشر الميلادي للتدليل على الحروب الداخلية بين المدن الإيطالية . فيشر ، تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ت محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ق1 ، القاهرة ، د. ت، ص 196، ح1 .

(22) Ludolph, op. cit. p., 45.

(23) Ludolph, op. cit. p., 55.

ثم انتقل إلى الحديث عن الأشرف خليل بن قلاوون في مصر ، وأنه غضب من نقض الصليبيين للمعاهدات ، وأن هذا الأمر يضر به وبرعيته . ثم تناول بالتفصيل أخبار الحملة المملوكية على عكا ، والمعارك التي دارت هناك . وبدأ حديثه بذكر الحصار المضروب حولها، وتكلم عن محاولة رئيس جماعة الداوية للوصول إلى اتفاق مع الأشرف . وعندما نجح في ذلك عاد إلى جموع الصليبيين ، وطرح عليهم شروط السلطان لعقد الاتفاقية ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وباءت محاولته بالفشل[24] .

وتحدث بعد ذلك عن تطور الحوادث في ساحة القتال ، فذكر أعداد الجيوش ، وشرح خطط القتال التي اتخذها الأشرف ، وذكر بعض الأسلحة المستخدمة في القتال من آلات للحصار ، وقاذفات للنيران والأحجار ، وسهام ، ورماح . وأما الصليبيون فقد دافعوا عن المدينة باستماتة ، فتحصنوا خلف الأسوار ، وقاتلوا في الأبراج . ولم ينس لودولف أن يمتدح شجاعتهم في القتال ، وأن سقوط المدينة كان بسبب الأنانية ، وانشغال كل جماعة بالدفاع عن ممتلكاتهم الخاصة ، وكل سيد بالدفاع عن قصره أو قلعته بدون مساعدة رفاقه. وأخيرًا اقترب وقت تكفير الذنوب ، على حد تعبيره ، وسقطت المدينة[25] .

ونعلم مدى ما أصابه من كرب على سقوط مدينة عكا ، عندما نجده يتوسع في وصف المشهد المأسوي الأخير لسقوط هذه المدينة الأثيرة لديه ، ونلاحظ أيضًا أن هذا المشهد أخذ من لودولف مزيدًا من البحث ، سواء بالسماع الشفهي والتحري ، أو بالقراءة والاطلاع . وبعد تمحيص وتدقيق ، استخرج لودولف أربعة عناصر كانت تساعد المسلمين في القتال ؛ العنصر الأول هو الجو ، ويقصد بالجو ظلمته وكثافة غيومه ، حتى كانت القلعة أو القصر يسقط في أيدي المسلمين ولا يستطيع الصليبيون الرؤية لإنقاذ هذا المكان ، ومن تعرض للهجوم داخل بعض الأمكنة لم يستطع رؤية المهاجمين ، إلا عندما يباغتونه ، ولا يقدر على صدهم . والعنصر الثاني هو النار التي أحرقت المدينة . وأما الثالث فهو الأرض التي شربت دماءهم . والعنصر الرابع هو مياه البحر التي هاجت في شهر مايو على غير عادتها ، لتبتلع آلافًا مؤلفة من الذين حاولوا الفرار من أيدي المسلمين،

(24) Ludolph, op. cit. p., 56.
(25) Ludolph, op. cit., pp. 56 - 57.

ولم ترحم هذه المياه شيخًا ولا امرأة ولا طفلاً ، وكأنها تعاقبهم على آثامهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم[26] .

ثم انتقل لودولف إلى ميناء المدينة ، وتحدث عن ضحايا المشهد الأخير ، ووصفه وكأنه واحد من الجالسين على أرصفة الميناء ، أو واحد من عمال المراكب المتأرجحة على أسنمة الأمواج الهائجة في مواجهة الميناء . وقد ساعده على ذلك رواته الذين نجوا من هول هذا اليوم، وامتد بهم العمر حتى التقاهم . فقد ذكر أن أهل عكا لم يجدوا أمامهم من ملجأ يومئذ سوى الميناء ، ولكن البحر رفض أن يحمل هؤلاء الآثمين ، وفشلت السفن في الاقتراب من الأرصفة . ومن غرائب ما نقله لودولف عن رواته أن ما يزيد عن خمسمائة سيدة وفتاة من بنات الملوك والأمراء أردن أن ينجون بأنفسهن في مقابل أن يعطين ما يملكن في أنفسهن ، ومن حليهن . وقد وجدت هؤلاء النسوة بحارًا يحملهن إلى قبرص ، ويبدو أنه كان مخادعًا ، فذهب بهن، ولم يعرف أحد عنه شيئًا بعد ذلك[27] .

وعاد لودولف إلى عرض الموقف في المدينة ، وتحدث عن الساعات الأخيرة للمقاومة الصليبية . فذكر أن الصليبيين قاوموا ببسالة حتى تهاوت قلاع المدينة ، ولم يبق صامدًا سوى قلعة الداوية ، وبعض الأبراج الأخرى . وذكر أن الداوية سطروا ملحمة بطولية في المقاومة ضد المسلمين ، ولم يجد المسلمون أمام هذه المقاومة سوى سلاح الخداع ، حسب روايته ، فذكر أن فشل المسلمين في الاستيلاء على قلعة الداوية جعلهم يعقدون هدنة مع المحاصرين . وبعد استسلام الصليبيين لهم ، أخذوهم بين قتيل وأسير[28] .

ثم اختتم لودولف حديثه عن سقوط عكا بإحصاءات عن أعداد القتلى والأسرى الفارين من الجانب الصليبي ، وأعداد قتلى المسلمين . وعن مدة الحصار ، ومدة القتال داخل المدينة ، ومدة حصار قلعة الداوية . ثم ذكر أن مسيحيي الشرق ما زالوا ينشدون ترانيم الحسرة على سقوط عكا ، وأنهم لا زالوا يحدّون حزنًا على ضياعها . وعلى الرغم من أنه ذكر أن المسلمين

(26) Ludolph, op. cit., p. 58.

(27) Ludolph, op. cit. pp. 58-59.

(28) Ludolph, op. cit. pp. 59-60.

هدموا أسوار وأبراج وقلاع وقصور المدينة ، لكنه عاد واستثنى من الهدم كل الكنائس والأسوار والأبراج ، والعديد من القلاع والقصور[29] .

وقد حرص لودولف أثناء حديثه عن جزائر البحر المتوسط ، ومدنها الكبرى ، على أن يذكر شيئًا من أخبار الصليبيين الذين فروا من عكا بعد سقوطها . فعند حديثه عن جزيرة قبرص ذكر أنها كانت ملكًا للداوية ، ثم ابتاعها ملك بيت المقدس ، وانتقل إليها الأمراء والنبلاء والبارونات ، وأصبحت قبرص مملكة لهم . وعند حديثه عن مدينة ليماسول Limasol في قبرص ، ذكر القارئ بما قاله من قبل ، وأضاف قائلاً إن الداوية والإسبتارية كانوا ممن فروا إلى هذه الجزيرة أيضًا ، وأن أماكنهم وقلاعهم قائمة في المدينة حتى وقت زيارته . وقال إنه يقيم في ليماسول أيضًا مجموعة من التيوتون ، وأخرى من جماعة القديس توماس كانتربري[30] .

وأما نيقوسيا Nicosia ، فقد ذكرها لودولف على أنها عاصمة قبرص ، وأنها أصبحت مقر إقامة الملك والأساقفة والقساوسة ، والغالبية العظمى من الأمراء والكونتات والبارونات والفرسان . وتحدث عن ثراء أهل المدينة ، وأنه تعرف على كثير من النبلاء والفرسان الأثرياء هناك[31] .

وفي إطار حديثه عن الجوانب السياسية لم يغفل دور جماعات الفرسان الرهبان . وقد رأينا اهتمامه بإبراز دور الداوية في الدفاع عن مدينة عكا . وإلى جانب ذلك فقد أشار إلى بعض ممتلكاتهم السابقة عند مروره عليها[32] .

---

(29) Ludolph, op. cit. pp. 60-61.

وكان سقوط عكا في جمادى الآخرة 690هـ/ مايو 1291م . انظر ، أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، تحقيق محمد زينهم ويحيى سيد ، دار المعارف بالقاهرة ، د. ت ، ج3 ، ص233 ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق زبيدة عطا ، دار عين بالقاهرة ، د. ت، ص 294-297 ؛

Runciman,S., the Crusader Stated. 1243-1291, in Setton, vol., 2, pp. 617-618.

(30) Ludolph, op. cit., pp. 38-40.

(31) Ludolph, op. cit., pp. 42-43.

(32) Ludolph, op. cit., pp. 40, 49, 64, 65.

وأما جماعة الإسبتارية فقد حظيت باهتمامه ، ففي وقت رحلته كان الإسبتارية قد استقروا في جزيرة رودس[33] . فتحدث عن الجزيرة وتعجب من حصانتها . ثم تحدث عن تاريخ الإسبتارية هناك ، وفرارهم من بلاد الشام بعد سقوط عكا ، ثم انتزاعهم هذه الجزيرة من البيزنطيين عن طريق رشوة بعض سكانها . ثم ذكر أن هذه الجزيرة أصبحت مركزًا لتلك الجماعة القوية ، التي نجحت في تثبيت أقدامها هناك بين قوى كبرى ؛ كالبيزنطيين والأتراك والمماليك . وأشار إلى امتداد نفوذهم إلى بعض الجزر المجاورة التي أصبحت بمثابة خطوط دفاع أولى ، ومراكز إنذار . وقال إنهم يستخدمون الدخان كوسيلة إنذار نهارًا ، والمشاعل ليلاً ، وبطريقة ما يعرفون عدد السفن المهاجمة فيستعدون لقتالهم[34] .

وفي إشارة بالغة الأهمية ، تحدث عن الصراع بين الإسبتارية والأتراك في آسيا الصغرى . فذكر أن الأتراك أرادوا أن يرغموا الجماعة على دفع جزية ، مقابل عقد معاهدة سلام . ولكن الإسبتارية استخدموا الحيلة مع الأتراك ، وقاموا بهجوم مفاجئ على مجموعة منهم وذبحوهم جميعًا بدون تفريق بين رجل وامرأة ، صغيرًا كان أو كبيرًا . ثم ختم حديثه قائلاً إن أحدًا من الأتراك أو التتار منذ ذلك الحين لم يجرؤ على طلب الجزية من الإسبتارية[35] .

وأشار إلى جماعة التيوتون ودورهم في الدفاع عن عكا ، وعقب قائلاً إنهم قتلوا جميعًا في المعارك . ثم ذكر بعضهم ممن يقيمون في جزائر متناثرة في حوض البحر المتوسط ، فقال إن جماعة منهم يقطنون ليباسول في قبرص ، ومجموعة أخرى تقيم في بعض الجزر اليونانية، ولهم قلاع قوية هناك[36] .

---

(33) احتل الإسبتارية أرض رودس عام 1306م ، وسقطت المدينة عام 1308م . رنسيمان ، المرجع السابق ، ج3 ، ص 730 .

Luttrell, op. cit., pp. 283 - 285.

(34) Ludolph, op. cit., pp. 34-35.

(35) Ludolph, op. cit., pp. 36-37.

(36) Ludolph, op. cit., pp. 29, 40, 53, 57.

ولم يغفل لودولف في تقريره الإشارة إلى المدن الإيطالية ، والملاحظ أنه لم يتحدث عنها بما يوازي دورها الإيجابي للصليبيين في صراعهم مع المسلمين . فقد رأيناه من قبل يرد سقوط عكا إلى الصراع والتناحر الذي اشتعل بين البيازنة والجنوية واللمبارديين داخل المدينة . ثم ذكر عرضًا أن أخوين من الجنوية اغتصبا إحدى جزر الإمبراطورية البيزنطية ، ثم تنازل الأول عن نصيبه سرًا للإمبراطور ووقع الثاني أسيرًا ، ولم يلبث الإمبراطور أن فك قيد الأسير ، وجعله قائدًا لجيشه . ثم ذكر نجاح الجنوية في اغتصاب إحدى الجزر من الأتراك[37] .

ولم يذكر شيئًا ذا قيمة عن البنادقة ، سوى أنهم استولوا على جزيرة كريت Crete بالقوة من الإمبراطورية البيزنطية[38] .

ثم تحدث عن سياسة البابوية في إدارة الحركة الصليبية . فذكر أن البابوية تبنت سياسة الحصار الاقتصادي على بلاد الشرق الإسلامي ، أو دولة سلاطين المماليك في مصر والشام تحديدًا . فقال إن البابوية أصدرت مرسومًا بالحرمان الكنسي على كل من يسافر إلى الأراضي المقدسة بدون إذن البابا ؛ وذلك لأن المسلمين سوف يحصلون من هؤلاء المسيحيين على جزية ، وينتفعون بها في انتهاك المقدسات المسيحية ، وحرب الصليبيين . وأنه إذا كان من الضروري للبعض أن يسافر إلى الأراضي المقدسة ، فإنه يحرم عليه كنسيًا أن يتاجر مع المسلمين[39] .

ثم ذكر أن هناك بعض الحالات التي يمكن للرجل أن يسافر فيها إلى الشرق دون الحصول على إذن البابا ؛ وهي : إذا كان المسافر رجل دين ، أي يقوم بالتبشير بالمذهب الكاثوليكي . وإذا كان للمسافر هناك مريض قريب كأبيه أو أمه أو صديقه ، أو أن أحدهم وقع أسيرًا في أيدي المسلمين ، فعليه الذهاب إلى الشرق لرعايته أو افتدائه . ثم إذا سافر رجل للقيام بأغراض سلمية ، أو ترتيب أو استرداد أي شيء له قيمة ، وربما يقصد بذلك السفارات الدبلوماسية[40] .

---

(37) Ludolph, op. cit., pp. 29, 32-33, 53, 54.
(38) Ludolph, op. cit., pp. 20, 28, 33.
(39) Ludolph, op. cit., pp. 3-4.
(40) Ludolph, op. cit., p. 4.

وأشار لودولف إلى الإمبراطورية البيزنطية وعلاقتها ببعض القوى الموجودة آنذاك . فلا شك أنه نظر إلى الإمبراطور وعاصمته وآثارها نظرة إجلال ، ولكنه وقع تحت تأثير كاثوليكيته ، فقد نسب ضياع آسيا الصغرى من هذه الإمبراطورية إلى الانشقاق الديني الذي حدث بين كنيستي روما وبيزنطة ، ولم يجد وصفًا يستحقه البيزنطي الذي يقع أسيرًا في أيدي الأعداء سوى أنه كالماشية . وأعطى لودولف الحق لأي لاتيني في الاستيلاء على أراضي بيزنطيّة ، فهي لا شك سوف تعود - حسب قوله - إلى كنيسة روما[41] .

وفي إشارة هامة ذكر لودولف أن القطالونيين خدموا الإمبراطورية البيزنطية أثناء إقامته في القسطنطينية ، وأن الإمبراطور أعطاهم أجورهم[42] ، ومنحهم هدايا وآثارًا دينية نفيسة . وفي موضوع آخر ذكر اعتداء القطالونيين على أراضي الإمبراطورية ، وانتزاعهم أراضي المورة[43] . كما أشار إلى الصراع البيزنطي التركي حول آسيا الصغرى[44] .

وأشار لودولف إلى سلطان المماليك في إشارات عديدة ، وكان هذا السلطان وقت زيارته هو الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة 1309 - 1341م . والواقع أنه لم يذكره باسمه ، ولكن ذكره دائمًا بلفظ «السلطان» . والطريف أن هذه الإشارات تدل دلالة قاطعة على تقدير لودولف للناصر ، فقد أشار إلى مواقف عديدة للسلطان تجاه المسيحيين ، سواء كانوا رعاياه ، أو من بقايا الصليبيين الذين تخلفوا في الشرق بعد طردهم من بلاد الشام ، أو من أسراهم الذين يعملون في خدمة دولته .

فذكر أن السلطان يجزل العطايا والصدقات على رهبان دير سانت كاترين ، وأنه يرعى رهبان وراهبات أحد الأديرة القريبة من دمشق ، وقال إنه أثناء زيارته وجد

---

(41) Ludolph, op. cit., pp. 6-7.

(42) كان إمبراطور بيزنطة آنذاك هو أندرونيقوس الثالث باليولوغوس Andronicus III Palaeologus
نيكول ، د. أ. ، معجم التراجم البيزنطية ، ت حسن حبشي ، القاهرة ، 2003م ، ص 83 .

(43) Ludolph, op. cit., pp. 6-28.
وعن القطالونيين وبيزنطة انظر Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trsns. From the Germam by Hussey, New Brunswick, New Jersey, 1957, pp. 415, 438-39, 441, 488.

(44) Ludolph, op. cit., p. 29.

السلطان يحميهم كوالد لهم ، هذا فضلاً عن أن السلطان كان قد منح امتيازات لكهنة الضريح المقدس ، علاوة على بنائه كنيسة للنوبيين المقيمين في بيت لحم ، ولم يكن لهم كنيسة خاصة بهم[45] .

وذكر أن السلطان كان يكفل حمايته لرعاياه المسيحيين ، فعندما وقع الاعتداء على الطريق المؤدي إلى صومعة مجموعة من الرهبان عند صحراء أريحا ، وعلم السلطان بذلك أمر بإصلاح الطريق ، ومنح الرهبان إذنًا بالإقامة هناك للأبد . وفي أثناء الفتنة التي وقعت في دمشق عام 1341م ، وقتل فيها مسيحيون كثيرون على يد ملك دمشق والغوغاء ، تدخل السلطان وأوقف هذا الاضطهاد ، وانتقم للمسيحيين ، على حد تعبيره[46] .

وأشار إلى معاملة السلطان للذين تخلفوا من الصليبيين في الشرق ، فقال إنه ينظر إليهم دائمًا بعين الرعاية ، ومنهم ممرضة كانت تخدم في مستشفى الإسبتارية ببيت المقدس[47] . وربما تحمل هذه الإشارة احتمالاً أن السلطان كان يرعى المستشفى كاملة ، وليست الممرضة فقط .

وذكر تقدير السلطان للأسرى الصليبيين ، وأنه يخصهم بالخدمة في المواقع الهامة ، فجعل عددًا منهم ممن أسروا في معركة عكا الأخيرة حرّاسًا على حديقة البلسم . وذكر أنه قرّب أحدهم ، وجعله حارس حجرة نومه . وقال إن هؤلاء الأسرى يحتفلون بأعيادهم الدينية في ظل رعاية السلطان لهم . كما أنعم على كثير منهم بزوجاتهم وأطفالهم ، فأعتقهم، وأعادهم إلى أوربا[48] .

وتحدث لودولف عن بعض الجوانب الحربية لدولة سلاطين المماليك في إشارات متناثرة ، فذكر أن السلطان يجند الفرسان الحِسان ، وأنه وأمراءه يستخدمون الحمام كوسيلة سريعة لنقل الأخبار ، ولذلك فهم يمنعون صيده هناك[49] .

---

(45) Ludolph, op. cit., pp. 86, 95, 107, 134.

(46) Ludolph, op. cit., pp. 115, 130.

ويقصد بملك دمشق نائبها ، وكان النائب آنذاك هو الأمير تنكز ، الذي تولى نيابة الشام من 712هـ حتى قبض عليه الناصر وقتله في أوائل 741م . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، 1986 ، ج4 ، ص156 وما بعدها .

(47) Ludolph, op. cit., p. 107.

(48) Ludolph, op. cit., pp. 70, 71, 116.

(49) Ludolph, op. cit., pp. 80, 92.

وذكر أنه في سبيل مواجهة السلطان للأخطار الخارجية ، فإنه اعتنى بحراسة الإسكندرية وميناءها ، وقلعة البحر الأحمر التي تشرف على حركة الملاحة من وإلى الهند ، وذكر أنه اعتقل بها أسرى . ولما كان الخطر الصليبي لا يزال قائمًا ، فإن السلطان عطل ميناء يافا قبل قدوم لودولف بوقت قصير[50] .

وذكر اهتمام السلطان بتحصينات قلعتي الشوبك والكرك ، وأنه دائمًا يحتفظ في الكرك بكنوزه ، وابنه وولي عهده ، وأنه يلجأ إليها وقت الحاجة[51] . وأشار إلى حصانة قلعة دمشق ، وصرامة الحراسة على قلعة جبل صهيون[52] .

وأشار إلى بعض الأمور الداخلية الخاصة بمصر وسلطانها ، والتي تدل على رفاهة السلطان ورعايته لشئون دولته ؛ كمحاولته اكتشاف منابع النيل ، ورعايته لحديقة البلسم. وأشار إلى ثراء السلطان ، وحرصه على اقتناء الأحجار الكريمة ، ذات الأثمان الباهظة[53].

وتحدث لودولف عن الخلفية العباسي في بغداد ، وانتقل إلى الحديث عن التحالف الأرمني المغولي ضد المسلمين ، ونجاح هذا التحالف في تدمير بغداد ، وقتل الخليفة . وبغض النظر عن الأخطاء التي وقع فيه لودولف ، فإنه روى أن ملك أرمينيا طلب من إمبراطور المغول عدة مطالب[54] ؛ أولها : أن يتحول المغول إلى المسيحية . ثانيًا : أن يحل

---

(50) Ludolph, op. cit., pp. 46, 49, 80, 83, 92.

(51) Ludolph, op. cit., p. 119.

ويشير لودولف إلى الأحداث التي جرت في عصر الناصر ، عندما اضطر تحت حجر الأمير سلار وبيبرس الجاشنكير إلى التنازل عن السلطنة والفرار إلى الكرك في شوال 708هـ/ 1308م وعاد إليها في 709هـ/ 1309م . ثم يبدو أن لودولف كان لديه معلومات عن إقامة بعض أولاد الناصر في الكرك، وإبعاده لابنه أحمد هناك . انظر المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق زيادة وعاشور ، القاهرة، 1936 – 1973، ج2 ، ص 44، 515 .

(52) Ludolph, op. cit., pp. 91, 102, 119, 130.

(53) Ludolph, op. cit., pp. 41, 68, 77.

(54) كان إمبراطور المغول آنذاك منكو خان ، وملك أرمينيا هيثوم . ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ترجمه عن السريانية إسحق أرملة . بيروت ، 1986 ، ص297 – 309 ؛ أبو الفدا ، المصدر السابق ، ج3 ، ص233.

السلام بين التتار والأرمن . ثالثًا : أن يحطم المغول مساجد محمد (ﷺ) . رابعًا : أن يساعده على استرداد الأراضي المقدسة . خامسًا : أن يدمر بغداد[55] .

وقال إن المغول حققوا هذه المطالب سوى المطلب الرابع . ثم تحدث عن أحداث الحصار ، وما جرى على بغداد من هؤلاء الغزاة ، وقتل الخليفة ، وثراء المغول جراء نهب هذه المدينة[56] .

ونلاحظ أنه تناول قضية تحويل التتار إلى المسيحية ، وهي القضية التي شغلت البابوية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . وتحدث أيضًا عن التحالف المسيحي المغولي ضد المسلمين ، الذي لو تحقق لنجحوا في توجيه ضربة قوية للمسلمين ، وقد تداخلت الحقائق بالأمنيات في حديثه هذا .

وتناول لودولف بعض الجوانب الاقتصادية ، فقد أولى مصادر المياه والزراعة اهتمامًا كبيرًا ، فخص مصر بحديث طويل عن نهرها وأرضها وزراعتها ، فوصف النيل ومياهه ومجراه ، وتحدث عن محاولات السلطان اكتشاف منابعه ، وذكر الحيوانات التي تعيش فيه، وخاصة التماسيح[57] .

وتحدث عن أرض مصر ؛ فذكر حدودها ، ووصفها بالجزيرة وسط الصحراء ، وأنها أرض خصبة تنبت بها الأشجار والفاكهة والأعشاب والمراعي أكثر من أي بلد في العالم . ثم تحدث عن مناخها وأنه شديد الحرارة ، ولا تسقط عليها الأمطار . وتحدث عن وسائل الري ، وطرق ضبط المصريين لمياه النهر ، فقال إن المصريين أقاموا عمودين من نحاس في مجرى النهر عليهما علامات ، ويعني بهما مقياسي النيل؛ الأول عند بابليون ، والثاني بالقرب من الإسكندرية ، وذلك لمعرفة مقادير مياه النهر . وتحدث عن ابتهاج المصريين بقدوم الفيضان ، والفوائد التي يجنونها من وراء قدومه[58] .

---

(55) Ludolph, op. cit., pp. 48, 73 - 74.

(56) انظر عن هذا الموضوع جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ، ت حسن حبشي ، ط1 ، القاهرة ، 1968م ، ص84 ؛ محمود سعيد عمران ، المغول وأوربا ، الإسكندرية ، 1996م ، ص206 وما بعدها .

(57) Ludolph, op. cit., pp. 76-77.

(58) Ludolph, op. cit., pp. 78-79.

وقد أسهب في حديثه عن حديقة البلسم الواقعة في المطرية شمالي القاهرة[59] . وذكر أنها تخضع لرعاية السلطان مباشرة ، وأن البلسم الذي ينتج لا يذهب إلى أحد سواه . وتحدث عن طريقة استخراجه من أشجاره ، وعن فوائده العديدة ، وأنه أنفس ما يقدمه السلطان للملوك والأمراء الأجانب[60] .

ونوّه إلى جفاف الصحراء الشرقية وندرة النباتات بها ، وذكر أنها لا تخلو من الينابيع العذبة ، والتي تنبت حولها الأعشاب والحشائش . كما ذكر ندرة المياه في صحراء سيناء ، وسرعة امتصاص الرمال للمياه ، إن وجدت يومًا ما[61] .

وتحدث عن افتقار بيت المقدس للمياه ، وأنها تأتيها في قنوات من الخليل . وذكر نهر الأردن واتساعه وعمقه ، ووصف مجراه من المنبع إلى المصب ، وأن منبعيه الأساسيين هما جور Jor ودان Dan ، وأنهما يلتقيان عند الجليل ، فيسمى المجرى الواحد باسم الأردن ، وأنه يصب بعد ذلك في البحر الميت[62] . وذكر عدة ينابيع في مناطق متعددة من بلاد الشام ، في جبلي الكرمل ولبنان . وذكر نبعًا آخر بالقرب من طرابلس ، فجعلها جنة خضراء بزراعاتها وأشجارها وفاكهتها ومراعيها ، وعيون مياه عند الشوبك ، يزرع عليها القمح والكروم[63] .

وتحدث عن حدائق دمشق وبساتينها ، والتي تحيط بالمدينة لمسافة ميلين ، والأنهار والجداول والعيون التي ترويها ، والتي أعدت بمهارة لرفاهة البشر . وأن بها الطواحين التي تدار على هذه الأنهار ، وأن زهورها وورودها مزدهرة طوال العام ، وأنها تزخر بالفاكهة الطازجة[64] .

---

(59) تحدث طافور عن هذه الحديقة في رحلته ، ترجمها حسن حبشي بعنوان : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ، 1968م ، ص70 .

(60) Ludolph, op. cit., pp. 68-71.

(61) Ludolph, op. cit., pp. 82, 90.

(62) Ludolph, op. cit., pp. 97, 119-120, 127.

(63) Ludolph, op. cit., pp. 47, 64, 116.

(64) Ludolph, op. cit., pp. 129, 130-131.

وذكر حديثًا مفصلاً عن مزرعة إنجادي في بافوس بجزيرة قبرص ، وقال إنه ليس لها مثيل في العالم . فوصف عناقيد العنب وحباته وأن هذه المزرعة ملك للداوية الذين يسخّرون أسرى المسلمين في رعايته[65] .

وضمت رحلة لودولف إشارات قليلة عن الحرف والصناعات ، فتحدث عن معامل التفريخ في مصر ، والطريقة التي يستخدمها المصريون لفقس البيض ، ثم رعايتهم للأفراخ ، وأن هناك أعدادًا كبيرة من النساء العجائز اللواتي يعتبرن هذا العمل مصدر رزقهن . وأشار إلى بعض الحرف اليدوية الأخرى[66] .

وتعجب من مهارة صناع دمشق ، وتسابقهم في إتقان الصنعة ، وبراعتهم في عرض منتجاتهم ، وذكر أنهم يبيعون منتجاتهم اليدوية بأسعار باهظة . ولكنه لم يذكر أنواع هذه المنتجات[67] .

وتحدث عن صيد الأسماك في بعض المدن الساحلية التي مر عليها ، مثل دمياط وبعض قرى ومدن بحيرة طبرية . وقال إن أسواق القسطنطينية تزخر بالأسماك ، وأنهم بارعون في تمليحها وتصديرها إلى كل بقاع آسيا[68] .

وذكر حرفة انتشال الشعب المرجانية ذات الرائحة الكريهة ، فشاهد محترفيها المهرة على ساحل بلاد المغرب يقومون بانتشال كميات كبيرة منها ، بعد أن تلقي الأمواج بها على الشاطئ ، ثم ينظفونها ويلمعونها ، ويقدمونها للبيع . ورأى المصريين يستخدمون شباكًا ذات خيوط جلدية لاستخراج هذه الشعب من البحر الأحمر . ففي البداية ، يضعون الشباك في البحر ، حيث تنمو الشعب عليها ، وبعد مرور ستة أشهر ، يسحبون الشباك وقد امتلأت بأعداد لا حصر لها من الشعب ، فيبيعونها ويربحون منها أموالاً طائلة[69] .

---

(65) Ludolph, op. cit., pp. 39-40.
(66) Ludolph, op. cit., pp. 46, 67, 129.
(67) Ludolph, op. cit., p. 129.
(68) Ludolph, op. cit., pp. 6, 81, 127.
(69) Ludolph, op. cit., pp. 14-15, 84.

وأما عن التجارة ، فقد أشار لودولف إلى جانب من حركة التجارة الداخلية في البلدان التي زارها. ففي مصر، ذكر حركة الأسواق الداخلية التي تعقد كل أسبوع، وتعرض فيها السلع المختلفة التي يأتي بها الفلاحون من مزارعهم وبيوتهم ، وعلى رأس هذه السلع الطيور والبيض والظبية والماعز[70] .

وذكر أن أسواق دمشق غنية بكل أنواع السلع ، وعدّد هذه السلع كالتوابل والأحجار الكريمة والحرير ، وأن سوق الأطعمة وحده يشهد إقبالاً كبيرًا من الناس يوميًا ، وأن به كل أنواع الأطعمة التي تتصورها ، وأنها مطهية بطريقة متقنة ، وأنهم يستخدمون الميزان في بيعها ، وأشاد بالأمن داخل هذه الأسواق ، وقال إنه على الرغم من كثرة البضائع إلا أنها تترك بلا حراسة ، ونادرًا ما تتعرض الأسواق للسرقة ، ولم يذكر أحد أن هذه المدينة قد وقع فيها حادث قتل ، ثم ذكر أن بغداد تفوق غيرها في حجم السلع وأنواعها المتوفرة بها[71] .

وقدم لودولف معلومات وافية عن حركة التجارة العالمية ، فأشار إلى طريق التجارة في البحر المتوسط ، والمحطات الرئيسية على هذا الطريق . وكذلك الطرق التي تعبر البر فتصل إلى البحر الأحمر أو التي تمر على دمشق وبغداد . وأشار إلى أن البحر المتوسط مليء بالسفن التجارية التي تجوبه ذهابًا وإيابًا ، وأن قبرص هي إحدى الجزر المحورية في حركة التجارة العالمية ، حيث يوجد بها ميناء فاماجوستا Famagusta الذي يعد ملتقى التجار والحجاج ، وأن السفن صغيرها وكبيرها تأتي إليها محملة بالبضائع من مختلف الأقطار . ثم تحدث باستفاضة عن ثراء سكانها نتيجة للحركة التجارية التي تلعبها هذه الجزيرة ، وشبهها بالشرق الأقصى للبلاد الأوربية[72] .

وتحدث عن طريق البحر الأحمر ، الذي يعد همزة الوصل بين الغرب والشرق آنذاك ، وأن السلع والبضائع تأتي من الهند إلى البحر الأحمر ، ثم تنقل إلى نهر النيل ومنه إلى البحر المتوسط ثم أوربا[73] . وذكر دور بعض موانى بلاد الشام كمحطات تجارية هامة ، ومنها

(70) Ludolph, op. cit., pp. 67, 79-80.
(71) Ludolph, op. cit., pp. 73, 129-130.
(72) Ludolph, op. cit., pp. 38, 41, 42, 43-44.
(73) Ludolph, op. cit., p. 84.

عكا ، التي كانت تأتيها البضائع من كل بقاع العالم منذ شروق الشمس إلى غروبها ، وقال إن هذه الموانى فقدت أهميتها وقت زيارته[74] .

وأما عن الأوضاع الاجتماعية ، فقد أخذت جانبًا كبيرًا من رحلة لودولف ، إذ ترك العنان لقلمه فدون ما حفظته ذاكرته عن الأوضاع الاجتماعية التي لفتت انتباهه في البلاد التي زارها . فكتب عما يعني الرجل الأوربي الذي يأتي إلى الأراضي المقدسة ، فذكر جانبًا من أوضاع الصليبيين قبل سقوط عكا ، والرفاهة التي كانوا يعيشون فيها ، علاوة على أوضاع التجار والحرفيين . وتحدث عن نظافة مدينة عكا وشوارعها ومنازلها ، فالشوارع مغطاة بأقمشة حريرية أو مظلات ، والمنازل مزينة بالزجاج والصور ، ومحلاة بالطلاء والرسوم[75] .

وأشار إلى حياة الصليبيين في قبرص ، فقال إن هذه الجزيرة أصبحت مملكة لهم بدلاً عن تلك التي سقطت في بلاد الشام . وذكر أن أوضاعهم فيها اختلفت عما كانوا عليه في بلاد الشام ، وأن التجارة وموارد الجزيرة الوفيرة درت عليهم ثروات طائلة ، جعلتهم يعيشون في ثراء فاحش ، وذكر عناصر سكانية أخرى في الجزيرة كالبيزنطيين والمسلمين[76] .

ثم تحدث عن الرفاهة التي يعيش فيها الصليبيون هناك ، وضرب مثلاً بحلي عروس كانت ترتديها على رأسها ، وقيل إنها كانت أفضل من مجوهرات ملك فرنسا. وقال إن الأمراء هناك يقضون أوقاتهم في المسابقات والصيد ، وينفقون أموالاً باهظة على رياضة الصيد ، فيستعينون بالكلاب والصقور ، وإن أحدهم كان يملك خمسمائة كلب صيد ، وحسبما جرت به العادة هناك ، فإن كل زوج من الكلاب له خادم خاص[77] .

وأشار إلى جماعات دينية تبشيرية ، فذكر أن أسقف جزيرة سيو Syo[78] وقت زيارته كان من جماعة الدومنيكان[79] . وذكر محاولة جماعة أخرى منهم أيضًا لشراء قطعة أرض

---

(74) Ludolph, op. cit., pp. 49, 53, 60, 63, 65.
(75) Ludolph, op. cit., pp. 51, 52, 53.
(76) Ludolph, op. cit., pp. 25, 45.
(77) Ludolph, op. cit., pp. 41-43.
(78) حدد لودولف موقع هذه الجزيرة ، فقال إنها جزيرة إغريقية قبالة ساحل آسيا الصغرى ، ومشهورة بأشجار الصمغ على أرضها Ludolph, op. cit., p. 29 .
(79) وجماعة الدومنيكان أسسها القديس دومنيك St. Dominic ، وهم جماعة دينية تبشيرية . كولتون ، عالم العصور الوسطى ، ت جوزيف نسيم يوسف ، الإسكندرية ، 1983م ، ص 174، حاشية 2.

في فلسطين ، وغادر الشرق بدون أن يعرف إن كانت الصفقة قد تمت لصالحهم أم لا . ورأى عددًا من أديرة السسترشيان على جبل فقوعة الواقع بين غور الأردن وفلسطين[80]، والتقى بعض الرهبان الفرنسسكان[81] .

وعند حديثه عن مستشفى الإسبتارية في بيت المقدس ، ذكر الخدمات التي يلقاها المرضى من الحجاج ، وأنها تتسع لإقامة ألف نزيل بسهولة ، وتوفر للنزيل احتياجاته مقابل دفع ثمنها، ويدفع النزيل فلسين بندقيين فقط لإقامته ، حتى لو امتدت إقامته عامًا كاملاً[82] .

والتقى بعض الصليبيين الذين تخلفوا في الشرق ، ومنهم ممرضة أقامت على خدمة المرضى في مستشفى الإسبتارية ، وأرملة فضلت البقاء حيث مات زوجها ، والتقى بعض الأسرى الآخرين ، وذكر أن أناسًا منهم سألوه عما إذا كان في ألمانيا أناس يتحدثون عن أقارب لهم في الشرق[83] .

وأشار إلى بعض الأسرى الصليبيين الذين رآهم في مصر أو في بلاد الشام ، وذكر شيئًا من أخبارهم ، والأعمال التي يقومون بها ، والمعاملة الطيبة التي يعاملون بها ، وآمالهم في افتكاك أسرهم كبعض بني جلدتهم[84] .

وأشار إلى أن بعض الجاليات من المسيحيين المحليين في دمشق وما حولها ، وفي جبل لبنان ، وأن الأخيرين يتبعون مذهب الكنيسة اللاتينية ، وأنهم يتحرقون شوقًا إلى قدوم الصليبيين ، واسترداد الأراضي المقدسة[85] .

---

(80) Ludolph, op. cit., pp. 29, 112, 124.
والسسترشيان جماعة دينية أسسها راهب فرنسي يدعى روبرت عام 1098 تقريبًا ، وأبرز أعلامها القديس برنارد من كليرفو ، وإليه ينسبون في بعض الأحيان . كولتون ، المرجع السابق ، ص173، ج1.

(81) Ludolph, op. cit., pp. 23, 24, 38, 102.
والفرنسسكان جماعة دينية تبشيرية، أسسها القديس فرنسيس (ت 1226م). ويسمون أيضًا بالكورديليين Cordeliers ، إشارة إلى الزنار الذي يشدون به أوساطهم . فيشر ، المرجع السابق ، ص234-236 ؛ ماستناك ، السلام الصليبي ، ت بشير السباعي ، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ، 2003م ، ص264 وما بعدها .

(82) Ludolph, op. cit., pp. 106- 107.
(83) Ludolph, op. cit., pp. 30, 64, 107, 126.
(84) Ludolph, op. cit., pp. 70-71, 83, 92, 116, 123.
(85) Ludolph, op. cit., pp. 48, 130, 134, 135.

وتحدث عن جوانب اجتماعية في مصر ، فذكر ابتهاج المصريين بفيضان النيل ، وما يجلبه إليهم من خيرات . وذكر شيئًا من حياة الفلاح ، وعلاقته الحميمة بطيوره وحيواناته المتنوعة ، التي يقوم بتربيتها ، وتنتشر في الشوارع هنا وهناك[86] .

وتحدث عن الإسكندرية ونظافتها وسكانها ، وعن عمال النظافة بها ، وأنهم يمنعون أي شخص من إلقاء القاذورات في الشوارع ، فالمدينة تأخذ اللون الأبيض، وتزين بالنافورات ، وتحدث عن سكان دمياط ، وامتهانهم صيد الأسماك[87] .

وضمت الرحلة حديثًا عن بدو سيناء ، فوصف لودولف أجسامهم وأشكالهم ، وزيهم وحياتهم في الصحراء . وذكر بعض عاداتهم في المأكل والمشرب ، ومصادر رزقهم ، وبراعتهم في معرفة الصحراء ، وعلاقتهم بالسلطان[88] .

كما تحدث عن سكان مدينة جات Gath الفلسطينية ، أو اسكندااليوم Scandalium[89] . ووصفهم بأنهم رجال أقوياء ، ويعرفون طرق المنطقة جيدًا ، وهم يتجولون دائمًا ، ووصفهم بالقسوة والهمجية ، وأنهم يعتدون على جيرانهم باستمرار[90] .

وتحدث عن سكان دمشق ؛ فمنهم النبلاء والحرفيون والعمال والتجار ، وأن كل أصحاب مهنة يقيمون في شارع واحد ، وعن أغنياء المدينة ومنازلهم ، وطيور الزينة التي يقتنونها ، وتحدث عن المدينة وشوارعها ومنازلها المزينة ، ووسائل الترفيه بها[91] .

هذا فضلاً عن بعض الإشارات الأخرى ، كوصفه سكان مدينة بوغيا أو بجاية Pugia ، الواقعة على ساحل الجزائر ، وأنهم يربون القردة ، ويتكسبون من بيع صغارها[92] .

---

(86) Ludolph, op. cit., pp. 78- 80, 81.
(87) Ludolph, op. cit., pp. 46, 81.
(88) Ludolph, op. cit. pp., 90-91.
(89) حدد بورشارد من دير جبل صهيون موقع هذه المدينة ، بأنها على بعد أربعة فراسخ من يافا . وصف الأرض المقدسة ، ت سعيد البيشاوي ، مراجعة مصطفى الحياري ، ط1 ، عمان 1995م ، ص163 .
(90) Ludolph, op. cit., p. 62.
(91) Ludolph, op. cit., pp. 129- 130.
(92) Ludolph, op. cit., p. 9.

وتناول لودولف في تقريره موضوعات أثرية هامة ، منها ما كان ذا طابع حربي وثقافي وديني . فعن الجانب الحربي ، وصف أسوار مدن وقلاع وحصون ، وذكر ما هو قائم بالفعل ، وما تهدم جراء الحروب ونتائجها . فمر على مدن ذكر أنها حصينة، وأسوارها عالية ، ولم يفصل الحديث عنها أكثر من ذلك ، كالقسطنطينية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وبيت المقدس . وأما عندما تحدث عن عكا ، فقد فصل وصفه عن أبنية المدينة، وأسوارها الضخمة ، وتحصيناتها الخارجية . وكذا تحدث عن أسوار مدينة الشوبك[93] .

وأشار إلى أهرامات الجيزة في مصر ، وأن عليها نقوشًا عديدة باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والكلدانية ، ونقل جزءًا من النص اللاتيني . وفضلاً عن ذلك ، فقد أشار إلى سرقة البنادقة لآثار مدينة طروادة Troy اليونانية القديمة ، وأنه لا يوجد عمود حجري ، ولا قطعة حجرية واحدة في البندقية لم تجلب من طروادة ، وكذلك فعل الجنوية مع آثار أثينا القديمة[94] .

وأما عن الآثار الدينية فقد احتلت جانبًا كبيرًا من رحلة لودولف ، فتحدث بإسهاب عن الكنائس والأديرة التي مر عليها ، وخاصة في مصر وبلاد الشام . ولا ننسى أن زيارة هذه الأماكن كانت هدف رحلته ، ولذلك فقد أفاض في الحديث عن أديرة وقلايات مصر ، ودير سانت كاترين ، ثم كنائس بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والخليل وإقليم الجليل وما حوله .

وكان بديهيًا أيضًا أن يهتم بالأخبار الدينية ، حتى إننا نادرًا ما نجد صفحة من تقريره خالية من هذه الأخبار . وساعدته ثقافته الدينية ، واستعانته بالكتاب المقدس على تفصيل الأخبار الدينية . وبالفعل سيجد القارئ صعوبة في مطالعة رحلته ، إلا إذا كان ملمًا بما ورد في الكتاب المقدس من أخبار عن شخصياته ، وأماكنه المقدسة .

وفي إشارات متناثرة وعديدة ، ذكر لودولف كثيرًا من البلدان والمواقع والجزر والبحار والأنهار التي مر عليها ، بداية من الممالك المسيحية والإسلامية في بلاد الأندلس ،

---

(93) Ludolph, op. cit., pp. 5, 29, 46, 50-51, 97, 116, 126.

(94) Ludolph, op. cit., pp. 20, 28, 72.

ثم في شمال إفريقيا . وأشار إلى الطرق الداخلية التي يسلكها الزائر من بلد إلى آخر ، ووسائل النقل ، والصعوبات التي واجهته أثناء رحلته .

وتحدث عن أمور رآها مثيرة للعجب ؛ مثل البراكين في صقلية ، والمخاطر التي واجهها في رحلته ، سواء من الرياح والعواصف ، أو من الأسماك الشرسة ، أو من المياه الضحلة والشعب المرجانية . وتحدث عن هجرة الطيور وأنواعها ، ومعاناتها أثناء ترحالها. هذا فضلاً عن العديد من الطرائف الأخرى التي ذكرها ذكرًا عابرًا.

**منهج لودولف في تدوين رحلته :**

والحقيقة أن لودولف اتبع منهجًا دقيقًا في تدوين تقريره ، فقد اعتمد على مصادر متنوعة ، كانت محل ثقته . وذكر أن أحدًا لا يستطيع أن يطعن في تقريره ، أو لا يقدّره ، لأنه يملك الدليل على ما رآه أو سمعه من الرجال الثقة[95] . ثم إنه كان ناقدًا ، فتعامل مع كثير من هذه المصادر بالنقد والتحقيق ، ولم يأخذ أخباره على علاتها ، فتوقف أحيانًا عند بعض الأخبار ، وانتقد مصدرها ورواتها ، وأعلن رأيه فيما رواه صراحة .

وقد تنوعت المصادر التي اعتمد عليها ، وأهم هذه المصادر هي الرؤية أو المشاهدة . وتعد المعلومات التي سجلها كشاهد عيان هي أهم ما دون في رحلته ، لأنه رآها بعينيه ، وحفظتها ذاكرته حتى سجلها ، ثم لأنها حوادث كانت جارية وقت زيارته ، ولا نجدها في المدونات التاريخية الأخرى .

وجاءت روايته للموضوعات التي رآها في إطار سردي تتابعي ، بمعنى أنه تحدث عما يراه ، وكان ينهي حديثه أو يقطعه بذكر خبر آخر متعلق بما يرويه ، ويعود إلى موضوعه الأصلي في سرد ما يراه ثانية . وأثناء سرده لا يذكر أنه يدون ما يراه ، وإنما يترك للقارئ فهم ذلك ، مع الإشارة إلى ما يوحي أنه كان حاضرًا حال حدوث ما يذكره . فنجده في مثل هذه الحالات يقول : «وأثناء زيارتي» ، و«وأثناء إقامتي هناك» ، و«سمعت في هذه البلاد» ، و«حاليًا» ، و«ولكنه الآن» ، و«وحتى اليوم» ، و«ويمكن رؤية ....» ، وما شابه هذه العبارات[96] .

---

(95) Ludolph, op. cit., p. 136.

(96) Ludolph, op. cit., pp. 6, 76, 77, 95, 107, 108.

وأما المصدر الذي يحتل المرتبة الثانية ، فهو اعتماده على السماع . وعرفنا سلفًا أنه كان دءوبًا في البحث عن المعلومة التي يريدها . فسمع ممن عرفهم ، وسأل آخرين غيرهم عما يريد معرفته ، وأسند رواياته التي سمعها إلى رواتها . والواقع أنه لم يذكر أسماء رواته ، واكتفى بقوله : «أخبرني أحد رهبان هذا الدير» ، و«وقد سمعت من بعض التجار» ، و«وقد سمعت من بعض المسلمين المرتدين» ، و«وكما سمعت» ، إلى آخر هذه العبارات[97] .

وإذا اعتمد على مصدر لا يثق في خبره ، فإنه يتخذ الحذر تجاهه ويشير إلى ذلك ، فيقول في مثل هذه الحالة : «والبعض يقول ...» ، ثم يعقب على الخبر قائلاً : «ولكنني لا أعلم يقينًا أي شيء عن هذا الموضوع»[98] .

وأما إذا كان مصدره محل ثقة ، فإنه يشير إلى ذلك بمثل هذه العبارات : «كما سمعت من رجال ثقة» ، و«وسمعت من أحد الفرسان الموقرين» ، و«وسمعت من سيد مبجل ، ومن بعض الرجال الصادقين الآخرين» ، و«وسمعت من الرجال الثقة والتجار» ، و«وسمعت من ذوي المعرفة» ، و«وأخبرني بحار مشهور»[99] . فهنا نجده واثقًا من مصادره ، ويريد أن ينقل هذه الثقة للقارئ ، فينعت الراوي بالموقر أو المبجل أو الصادق أو ذي المعرفة أو المشهور .

وأما القراءة ، فكانت المصدر الثالث الذي اعتمد عليه لودولف في كتابة تقريره. وقد لوحظ أن المادة المتعلقة بالأمور الدينية هي التي أخذها من مصادر مكتوبة ، وهي عبارة عن قصص وأخبار أنبياء بني إسرائيل ، والمسيح وتلاميذه والقديسين ، وغيرها من الأمور الدينية .

وكان لودولف أمينًا بدرجة كبيرة ، فذكر المصدر الذي نقل عنه في معظم الحالات . فقد اعتمد على الكتاب المقدس ، وأحال القارئ إليه ، كأن يقول : «ويخبرنا الكتاب المقدس» ، و«ونقرأ في الكتاب المقدس» ، و«ويروي الكتاب المقدس» ، وما شابه هذه العبارات[100] .

---

(97) Ludolph, op. cit., pp. 25, 67, 76, 87, 98.
(98) Ludolph, op. cit., p. 92.
(99) Ludolph, op. cit., pp. 4, 15, 16, 17, 18, 54, 56, 58, 63, 72.
(100) Ludolph, op. cit., pp. 40, 67, 88, 98, 115, 123, 125, 126, 127, 128.

وأشار أيضًا إلى كتب رجع إليها ، ونقل عنها ، وحددها صراحة ، وفي أحيان أخرى لم يحددها . وإذا حدد يقول على سبيل المثال : «عرفت ذلك من كتاب حياة الآباء» . وأشار إلى كتب لها صفة العمومية بدون تحديدها ، فقال : «ونقرأ في تاريخ ملوك الشرق» ، و«ونقرأ في تاريخ طروادة» ، و«طبقًا لما قرأته في كتب التواريخ ، وتاريخ ملوك أرمينيا»[101] .

ولكنه أشار في حالات أخرى إلى استعانته ببعض القراءات ، وترك إشاراته مبهمة دون تحديد أي نوع من القراءات التي رجع إليها ، فيقول مثلاً : «ويمكن قراءة عجائب كثيرة عن هذه المدينة»، و«ونقرأ عن هذا البحر ...»، و«ونقرأ أنه...»، و«ونقرأ عن ...» ، و«وقرأنا عنه»[102] . وهو في مثل هذه الحالات حاول أن يضع الثقة فيما يرويه ، وأوحى للقارئ أن هذه المعلومات ، والمزيد منها ، موجود في كتب معروفة ، وليس في حاجة إلى تحديدها .

ولم يكن لودولف ناقلاً عن مصادره نقلاً بدون إدراك ، بل كان ناقدًا في أحيان كثيرة . فذكر بعض الروايات التي اعترض على صحتها ، وروايات أخرى فسرها ، وأضاف إليها من فهمه وإدراكه . وعلى سبيل المثال ، قال إنه سمع وقرأ في بغداد عن أكاذيب كثيرة ، وضرب مثلاً على هذه الأكاذيب وفندها . ونفى قول البعض إن جبال فقوعة (جلبوع) هي موطن الطيور التي تأتي مصر مع فيضان النيل . ونفى خطأ آخر ، وهو أن هذه الطيور لا تتحمل المياه ، وأتى بأدلة ليثبت عكس ذلك . وتوقف عند نقاط أخرى مشابهة ، ففحص الرواية ونقدها ، ولم يقبل بها إذا ثبت لديه ضعفها ، وأضاف إليها رأيه إذا كانت في حاجة إلى توضيح[103] .

ويبدو أن لودولف أفاد من رحلات السابقين عليه ، فنجد بعض العبارات عنده تشابهت مع مثيلاتها عند مارينو سانوتو وبولدنسيل ، والملاحظ أن هذه العبارات خاصة بموضوعات دينية . ولم يشر إلى أنه نقل عن أحد منهم ، سوى ذكره عبارة توحي بهذا

(101) Ludolph, op. cit., pp. 24, 34, 74, 80, 96, 104, 110.

(102) Ludolph, op. cit., pp. 10, 26, 47, 62, 81, 132, 134.

(103) Ludolph, op. cit., pp. 71, 79, 120, 123.

المعنى ، قال فيها : «وقبل زيارتي لهذا المكان...» ، ثم روى قصة ورد مثلها عند سانوتو[104] .

وقد أفاد بعض الرحالة الأوربيين اللاحقين على لودولف من تقريره هذا ، ونقلوا عنه بعض العبارات ، ومنهم يوحنا هلدشيم John of Hildesheim الذي نقل عنه أكثر من عبارة[105] ، وأما فيلكس فابري Felix Fabri فقد ذكره لودولف صراحة في رحلته، ونقل عنه عبارات عديدة في موضوعات متعلقة بالبحر ومخاطره وجزره[106] .

ولا شك أن تقرير لودولف به أخطاء ، وقد لا يعاب عليه إسهابه في الحديث عن الأماكن والموضوعات الدينية ، ولكن ما يؤخذ عليه هو دمج قصص عديدة إلى هذه الموضوعات ، وإعطاؤها الطابع الإعجازي . وقد بالغ في هذا الأمر ، حتى جاءت العديد من أقاصيصه كالأسطورة ، ومن الصعب أن يقبلها العقل[107] .

ووقع في بعض الأخطاء التاريخية كقوله بأن ملوك بيت المقدس الصليبيين يرتدون تاجًا من شوك منذ عهد جودفري وحتى وقت زيارته ، وكذا قال إن كونت تولوز امتلك طرابلس ، وإن هولاكو نهب مصر وسوريا ، وأخطأ في تحديد سقوط عكا في يد الأشرف خليل . ووقع أيضًا في أخطاء جغرافية كقوله إن الإسكندرية تطل على النيل ، وإن دمياط كانت تسمى قديمًا باسم إديسا Edissa[108] .

وفي مواضع قليلة وقع لودولف ضحية سذاجة عقلية العصور الوسطى ، ووضح هذا الأمر جليًّا عند حديثه عن براكين صقلية ، فذكر أنها تثور حتى تصل عنان السماء إذا قامت معركة في أي مكان . ولم يترك هذا الموضوع بدون أن يؤكد للقارئ صدق روايته . وعلى نفس المنوال بالغ في أعداد جيوش الأشرف عند حصاره عكا ، وبالغ أيضًا في أعداد

(104) Ludolph, op. cit., pp. 72, 90, 93, 94, 95, 107, 109, 110.
(105) Ludolph, op. cit., pp. 94, 111, 112.
(106) Fabri, F., the Book of Wanderings of Brother Felix Fabri, trans. A. Stewart, in P.P.T.S., vols., VII-X, London, 1893-1896, part I, 115, 289, 391, 395; II, 27, 56, 376, 469, 746; III, 2, 67.
(107) Ludolph, op. cit., pp. 21, 22, 23, 24, 26, 27, 28, 29, 63, 65, 70, 73, 81, 87, 94, 95, 113, 133, 134.
(108) Ludolph, op. cit., pp., 45, 47, 81, 104, 134.

القتلى الذين سقطوا في المعارك من كلا الجانبين . وهو في ذلك يشبه مؤرخي عصره في المبالغة في الأعداد عمومًا[109] .

وإضافة إلى ما سبق ، فإن لودولف تناول موضوعات تاريخية متعددة ، منها موضوعات جرت أحداثها أثناء رحلته ، وموضوعات أخرى كانت سابقة عليها . وفي كل الموضوعات التاريخية لم يحدد التاريخ الذي وقعت فيه الحادثة . ويبدو أنه اكتفى بتعريف القارئ بموعد قيام رحلته ، وموعد عودته إلى ألمانيا ، وترك القارئ حائرًا في التحديد الدقيق لتاريخ هذا الموضوع أو ذاك .

وبعد ، فإن هذه الأخطاء التي ذكرت ، لا تقلل من قيمة تقرير لودولف عن رحلته . وسيظل ما كتبه بالغ القيمة لدارسي تاريخ العصور الوسطى عمومًا ، ودارسي الحركة الصليبية على وجه الخصوص ، وتواريخ بلدان مصر وبلاد الشام والعراق والدولة البيزنطية أيضًا .

(109) Ludolph, op. cit., pp. 24, 56.